قضايا النقد الأدبي في كتاب:"نور الطرف ونور الظرف" للحصري القيرواني

بوده العيد – سنة ثالثة دكتوراه

جامعة قاصدي مرباح ورقلة

: elaid88@gmail.com

الملخص :

يسعى الباحث إلى محاورة العقل النقدي للحصري القيرواني،في سياق نقد النقد، وذلك من خلال تتبع التوقيعات النقدية التي احتضنها كتاب النورين باعتباره مدونة أدبية لم توضع للنقد أصالة، كما حاولنا استقراء الخصوصية الثقافية للمغرب الإسلامي في خضم الممارسة النقدية عند هذا الناقد، الذي انعكست ثقافته الدينية على بصماته النقدية ويُعْزى ذلك للظرف التاريخي الذي جعل إقليم المغرب يقرب الفقيه العابد على الشاعر المبدع.

الكلمات المفتاحية: النقد الأدبي، النورين، الحصري القيرواني، القضايا النقدية، النقد القديم، المغرب الإسلامي.

Summary:

The researcher seeks to engage critically with Alhousri AlKairouani, critically critical by following the signatures contained in AlNaurine's book, as an uncritical and authentic literary code. Religious on his and attributed to the historical circumstance that made the territory of the Islamic Maghreb.

Keywords: Literary critic, Norin, Alhousri AlKairouani, Old criticism, Islamic Maghreb.

مقدمة:

ستتناول في هذه الورقة البحثية أهم المسائل النقدية المطروقة في النورين،والتي كانت محل اهتمام المشهد النقدي على تلك الفترة،على غرار قضية السرقات الأدبية،وقضية اللفظ والمعنى،والطبع والصنعة،والقديم والجديد.وقد أضفنا إلى هذه المسائل اجتهادنا الخاص في استنباط موقف الحصري من إحدى المسائل الهامة في هذا المضمار،وهي قضية المفاضلة بين الشعر والنثر.لكن الجدير بالذكر أن كتاب النورين ليس كتاب نقد،بل هو

مصنف أدبي محض ، لم يتناول فيه المؤلّف شيئًا من النحو والتّصريف واللّغة، بل قصره على فنون القول من شعر ونثر،وما يتّصل بذلك من ضروب البلاغة وجمال الصّياغة وإصابة التشبيه وحُسن الإنشاء وجودة الخطابة.فهل يمكن الوقوف على ممارسة نقدية واضحة في هذا الكتاب؟وهل تعكس المدونة خصوصية الثقافية للمغرب الإسلامي آنذاك؟وأين تبرز الحاسة الدينية للمؤلف من خلال أحكامه النقدية؟

العرض :

يمكننا القول: إنَّ حظَّ النقد في هذا الكتاب قليل وبسيط،وقد ينسحب هذا الحكم على مختلف مؤلفات الحصري.كما يعبر عن ذلك بشير خلدون القائل: "لقد كان حظ الحصري من النقد قليلا،ولكنه مع ذلك يعتبر من النقاد الذين ظهروا في المغرب في هذه الفترة الزاهرة بأدبها وأدبائها."(1) وذلك ما يجعلنا نعتبره علما بارزا في مدونة النقد العربي في المغرب الإسلامي، ولعل أحق الناس بالشهادة للحصري هو تلميذه ابن رشيق،إذ يشير في أنموذجه إلى مكانة الحصري في عصره فيقول: " كان شاعرا نقادا عالما بتنزيل الكلام وتفضيل النظام،يحب المجانسة والمطابقة ويرغب في الاستعارة ... وكان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه."(2)

اسمه الكامل: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحصري الأنصاري القروي(3)، وذكر ابن رشيق أنه ابن خالة أبي الحسن الحصري(الملقب بالضرير).والحُصْري كما قال ابن خلكان نسبة إلى عمل الحصر أو بيعها، وقد شكلها بضم الحاء وتسكين الصاد. وقد تعددت الآراء حول حقيقة تلقيبه بالحصري،ويمكن أن نأخذ رأيا تقريبيا للمؤرخ حسن حسني عبد الوهاب الذي قال:"الحصر وهي قرية صغيرة كانت حذو القيروان يصنع بها الحصر."(4) ولم تشر المصادر القديمة التي ترجمت للحصري إلى مكان وتاريخ مولده، ولعل ذلك يعود كما أشار الدكتور الشويعر إلى أن الحصري ولد في بيئة عادية،ولم يكن من بيت أو علم أو جاه حتى يحتفى بمولده.لكنه عاش حياة جعلت منه علما بارزا،وقد اعتبره الدارسين همزة وصل مهمة بين التراث المشرقي والمغربي،من خلال مؤلفاته التي شكلت مصدرا رئيسيا لأدب المشارقة بالنسبة للمغاربة والأندلسيين.ويكفي أن تَطَّلِع على كتابيه زّهر الآداب و النورين،لِتُعَايِنَ الحصيلة الأدبية المشرقية الكثيفة التي رُصِدت فيهما.

كتابه الموسوم بـ:نور الطرف ونور الظرف.وقد جرى اختصاره بين النقاد في اسم: النورين.وثبت أن الحصري أنجزه بعد تأليفه لكتاب زهر الآداب،ذلك أن المؤلف نفسه يصرح في مقدمة كتاب النورين بأن هذا الأخير مختصر من كتاب الزهر: "وقلت أجعله كالمختصر من الكتاب الموسوم بزهر الآداب وثمر الألباب،الذي ضمنته كل لطيفة ونظمته بكل طريقة."(5)

وإذا عرفنا أنه ألف زهر الآداب سنة 405هـ كما نص على ذلك الحصري نفسه،فإننا نستطيع أن نجزم أن النورين قد أُلِّفَ بعد هذا التاريخ.أي بين سنة405هـ و413هـ،وهي سنة وفاة الحصري على الغالب.

وكان أول من ذكر كتاب النورين ابن رشيق إذ يقول: "واختصره – أي زهر الآداب– في جزء لطيف سماه نور الطرف ونور الظرف."ثم أشار إليه ابن بسام وسماه كتاب النور والنور وقال عنه :" ثم اخد بعد ذلك في إنشاء التواليف الرائقة والتصانيف الفائقة ككتاب النور والنور."وأما ياقوت الحموي فقال عنه :"والذي أعرفه أنا من تصانيفه كتاب زهر الآداب، وكتاب النورين اختصره منه.وهما يتضمنان أخبارا وأشعارا حسانا". وقد نقل ياقوت عن النورين في أكثر من موضع مما يدل على إطلاعه عليه بنفسه.كما أشار الصفدي إلى هذا الكتاب وسماه كتسمية ابن رشيق(نور الطرف ونور الظرف)،وقال: "أنه جزء لطيف مختصر من الزهر".(6)

وقد ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون باسم نور الطرف ونور الظرف،وقال أنه في جزء واحد.وأما بروكلمان فقد أشار إلى أنه مختارات شعرية قصيرة.(7) وقد صرح الدكتور عبده قليقيلة بأن المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب قد ذكر أن الحصري نفسه قد اختصر كتابه زهر الآداب تحت عنوان"نور الطرف ونور الظرف".(8)

ونشير إلى أن الحصري نفسه يصرح باسم الكتاب في مقدمة النورين عندما يقول : "وفيما ألقي إليك هذا الكتاب الذي هو نور الطرف ونور الظرف،المختار الكثير مما ليس في الكتاب الكبير."(9)

هذا الكتاب تم تحقيقه في إطار عمل أكاديمي،تقدمت به السيدة لينة عبد القدوس أبو صالح كرسالة جامعية،للحصول على درجة الماجستير في اللغة والأدب العربي بجامعة الملك سعود،بإشراف من الدكتور محمد الربداوي.وذلك في العام 1409هـ/1989م.وقد دفعها إلى اختيار الكتاب رغبتها في المساهمة في إحياء التراث العربي القديم وبخاصة التراث المغربي،لقلة ما حقق منه لاسيما وأن كتاب النورين لم ينشر قبل ذلك،وهو من أشهر مؤلفات الحصري بعد زهر الآداب.

وقد جاء الكتاب مطبوعا في 455 صفحة،مقسما إلى قسمين حسبما اقتضته طبيعة البحث.حيث شغل القسم الأول الذي تضمن دراسة الكتاب 91 صفحة،وشغل تحقيق الكتاب الصفحات من " 39 الى 395".وشغلت الفهارس وهي ثمانية (الآيات،الأحاديث،الأمثال،الأشعار،الأماكن،الأعلام،المصادر والمراجع) الصفحات من "396 إلى 455".

وقد بلغ عدد المراجع والمصادر التي اعتمدتها السيدة أبو صالح مائة وخمسون مصدرا ومرجعا،بالإضافة إلى دورية واحدة مرتبة ترتيبا هجائيا حسب اسم الكتاب، وتنوعت هذه الكتب بين المصادر التراثية والدواوين الشعرية والدراسات الحديثة .

وفي خضم إطلاعنا على الكتاب،اتضح لنا أن أراء المؤلف النقدية قليلة متوزعة عبر تضاعيف المدونة،وهي عبارة عن أحكام موجزة عامة،يوردها الحصري دون أن يلزم نفسه بالتفصيل أو التعليل،ولكن من خلال استقرائنا لمختاراته في النورين استطعنا أن نصل إلى أهم أرائه النقدية في المسائل التي نوردها كالتالي:

01- السرقات الأدبية:

وهي القضية التي استحوذت على اهتمام كبير من لدن المؤلف، بالنظر إلى موسوعية الحصري الذي أتاح له توسعه في الاطلاع أن يقف على نقاط التقاطع بين المبدعين،فكثير ما نجده يجمع الأشباه والنظائر التي تدفعه لعقد الموازنات بين الشعراء،إلا أنه وكعادته لا يصرح برأيه في الموضوع ولا يحدد مصطلحات للسرقة،ولا يحدد أنواعها ولا يشير إلى المقياس الذي يجعل السرقة عيبا.عدا بعض الإشارات المتعلقة بأخذ المتأخر عن المتقدم،والحكم على المتأخر بأنه دائم الأخذ عن السابقين أو التصريح بأخذ الشعراء عن بعضهم في بعض النصوص،وعدم التصريح بالأخذ في مواضع أخرى.ويشير في بعض المواضع إلى احتذاء شاعر طريقة شاعر معروف آخر أو متابعته له في المعنى،وهو ما يعرف بالتأثر.

وسنمثل لهذه الأقسام في السطور الآتية:

أ - ما يصرح فيه بالأخذ :

يعني بالأخذ السرقة الصريحة الواضحة التي يعجز الأديب عن إخفائها،سواء كانت في المعنى فقط،أو في المعنى واللفظ معا،ونذكر على سبيل المثال ما قاله المؤلف في الأخذ في المعنى :

"أخذ محمد بن علي العلوي معنى مبتكرا وبديعا في الخروج من مسلم ين الوليد، مخالفا في ذلك ابن دريد الذي يقرر أسبقية العلوي إلى هذا الخروج – يقول محمد بن علي العلوي في قصيدة طويلة :

كأن نذير الشمس يحكي ببشره   علي بن داود أخي ونسيبي

يقول ابن دريد عن هذا الخروج: ما سمعت مثل هذا الخروج قط،(فيخالفه الحصري قائلا): وإنما أخذه من قول مسلم بن الوليد

أجدك ما تدرين أن رب ليلة   كان دجاها من قرونك ينشر

نصبت لها حتى تجلت بغرة   كغرة يحي حين يذكر جعفر."(10)

ويؤكد الحصري ذلك لأن هذا المعنى من المعاني النادرة،فالأخذ يكون فيه صريحا،وفي الغرض نفسه وهو المدح.يقول الحصري معلقا على ذلك: "والشيئ يذكر بما يدانيه من جهة معانيه."(11)

ومن هذه النصوص ما يكون الأخذ فيه في المعنى واللفظ،نحو أبيات ذكرها الحصري لشمس المعالي منها قوله :

"أما ترى البحر تطفو فوقه جيف ويستقر بأقصى قعره الدرر

يرى أنها مأخوذة من قول ابن الرومي :

كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سفلا وتطفو فوقه جيفه

فالتشابه هنا في المعنى واللفظ مترادف."(12)

وقد يصرح الحصري أن هناك أخذا متبادلا بين الشعر والنثر،لما يراه من التشابه في المعاني الشعرية والنثرية،ومن أمثلة ذلك قول المطوعي في قصته مع الأمير أبي الفضل الميكالي: "فلما سل سيف الصبح من غمد الظلام

(يقول الحصري) : اخذ المطوعي قوله فلما سل ... الخ، من قول أبي الفتح البستي:

رُبَّ ليلٍ أغمد الأنوار إلا نور ثغر أو مُدام أو ندام

قد نعمنا بدياجيه إلى أن سُلَّ سيف الصبح من غمد الظلام

والأخذ هنا في المعنى واللفظ معا."(13)

ب - نصوص لا يصرح فيها بالأخذ:

وذلك عندما يلاحظ فيها تشابها في المعنى بين شاعرين أو أكثر،وغالبا ما تكون عباراته فيها(وهذا كقول فلان).منها ما يكون بين شاعرين وهو النوع الغالب،ومن ذلك ذكره أبياتا لابن الرومي آخرها قوله في الشمس:

"ظلت تسايرنا وقد بعثت ضوءا يلاحظنا بلا لهب

(يقول الحصري): هذا وصف الشمس كما قال ابن المعتز:

تظل الشمس ترمقنا بطرف خفي لحظه من خلف ستر

فقد تشابه الاستعارتين بل تطابقهما في هاذين البيتين."(14)

ومنها ما يكون بين أكثر من شاعرين،فهو يذكر مثلا أبياتا لابن المعتز آخرها قوله:

"الحسن فيه كامل وفي الورى مختصر

ثم يقول : وقد قال ابن الوكيع في المعنى الأخير من هذه الأبيات:

صوَّره خالقنا جامعا لكل شيئ حسن بارع

فكل حسن في جميع الورى مختصر من ذلك الجامع

وقد قال ابن الرومي في هذا المعنى:

لا شيئ إلا وفيه أحسنه فالعين منه إليه تنتقل

فوائد العين فيه طارفة كأنما أخرياتها الأول."(15)

فيلاحظ هنا التقارب في معنى واحد عند ابن المعتز وابن وكيع التنيسي وابن الرومي،ولا يصرح بالأخذ والسرقة.ربما لعدم استطاعته الجزم بذلك،فلا يدري أيهم سبق إلى هذا المعنى،لأنهم من عصر واحد تقريبا.

ومن نصوص الحصري ما يلحظ فيه التشابه والتقارب بين معنى في الشعر وأخر يماثله في النثر،ولكنه لا يصرح فيهما بالأخذ.ومن أمثلة ذلك ذكره أبياتا وردت دون عزو في آخر رسائله للصاحب بن عباد هي :

"عيشا لنا بالابرقين تأبدت ايامه وتجددت ذكراه

والعيش ما فارقته فذكرته لهفا وليس العيش ما تنساه

(يقول الحصري عنه): وهذا كقول الحسن بن سهل : حد الطرب مابقى سروره يُتَخيّل في النفس ويتردد في الفكر."(16)

ج- نصوص يشير فيها الحصري إلى احتذاء شاعر طريقة شاعر آخر معروف،أو متابعته له في المعنى،وهو ما يعرف بالتأثر.(17) ومن ذلك إشارته إلى متابعة تميم بن المعز طريقة ابن المعتز في تشبيهاته و بديعه فيقول: "كان تميم بن المعز يقتفي طريقة ابن المعتز،في التشبيهات وبدائع الصفات في سلوك ألفاظ الملوك."(18)

02- الطبع والصنعة:

يميل الحصري إلى التوسط بين الحالتين من الطبع والصنعة، فهو معجب بالمطبوع الجيد والمصنوع المثقف.ولكن الشيء الذي ينكره هو التكلف والتعمل والجري وراء الألفاظ على حساب المعنى،فيأتي الشعر مهلهلا كثير الخطأ ضعيف الصواب.(19) رغم أننا نجده يميل إلى البديع ويلتزمه غالبا في أسلوبه.لكنه يقدم في إحدى نصوصه مفهوما للطبع لديه حيث يقول:"فهو الكلام الذي تميل إليه النفس ويجد لديها قبولا،ويكون من السهل الممتنع الذي أُعْتُنِيَ بمعناه كما أُعْتُنِيَ بلفظه وأسلوبه،لأنه إذا أُهْمِل لفظه خرجت معانيه وأشعاره إلى حيز المستهدم الرث،والمستوخم الغث،فأصبحت مُسْتَكرَهة.وأما المصنوع فهو الذي اعتنى به صاحبه فثقفه ونقحه بألوان البديع،ولكن قد تجره المبالغة في التصنع إلى التكلف وفساد المعنى."(20)

03- القدماء والمحدثون:

لم يقدم رأيا صريحا في الموضوع،لكن التأمل في تفكيره يجعلنا نعتقد أنه كان ميالا للجديد من خلال إعجابه بأهل العصر الذين بذوا من سبقهم وبهروا من لحقهم،وذلك ما يجعله يتوسل بكتاباتهم ويعقد لها فصولا قائمة بذاتها لألفاظهم في شتى أنواع المختارات التي رصدها.بل ويدعو الناشئة إلى الاحتذاء بأهل ذلك الزمان؛لأن ذلك أيسر لهم في الحفظ والمذاكرة والمناظرة.ولأن النفس أقرب إلى ما قَرُبَ منها مما بَعُدَ عنها،ولأن ما يتوالى على الأسماع و تكثر روايته تُمَلُّ حكايته فتمجه الطباع.ومما يشجعنا على هذا الاستنتاج،هو ميلانه الكبير إلى البديع الذي طغى على شعر المجددين. ولعل ميله إلى البديع نابع من طموحه إلى تحقيق غاية حضارية نبيلة تتمثل في تحقيق التلاقح بين الأصالة والمعاصرة والمزاوجة بينهما،من خلال الوصل بين لغة الموروث ولغة المستحدث،ذلك أن البديع : جزء من الموروث وهو بهذا ذو أصول راسخة.(21) ولأن البديع سمة المجددين والتجديد غاية في نفس الحصري يطمح إليها ويحترم من ينشدها،ويميل إليه مادامت الكلمات تخشى دخول عالم تتحول معه الى جوامد.فيعيد إليها البديع الحياة لتتولد من جديد ولادة تتجه فيها الكلمة الى الكلمة وتنتج نفسها،تتوالد تتجانس وتتطابق تتضاد وتتقابل تلمح وترجع باختصار شديد تتجدد فقط لتعيش.(22)

كما أن الحصري حاول بل قام بكشف جوهر الصراع بين الأجيال،فهناك من يتعصب للقديم ليس لقيمة فنه ولا لجمال أسلوبه أو رونق فضله،وإنما هو تشبث أعمى بالقديم حقا وباطلا.ويورد الحصري هنا قصة أبي نواس: عندما كان عبد الله محمد بن زياد الأعرابي يطعن في أبي نواس،ثم جمعه إحدى المجالس بأحد رواة شعر أبو نواس.

"روى أبو هفّان قال: كان أبو عبد الله محمّد بن زياد الأعرابي (ت 231هـ) يطعن في أبي نواس، ويعيب شعره، ويضعّفه ويستلينه، فيجمعه مع بعض رواة شعر أبي نواس مجلس والشيخ لا يعرفه، فقال له صاحب أبي نواس:

أتعرف –أعزّك الله– أحسن من هذا؟ وأنشده: "ضعيفة كرّ الطّرف ..." الأبيات، فقال: لا والله، فلمن هو؟ قال

للذي يقول:

رسْمُ الكرَى بين الجُفون نَحيلُ عفَّى عليه بكًا عليك طويلُ

يا ناظراً ما أقلعتْ لحظاتُهُ حتى تَشَحّطَ بينهنّ قتِيلُ

فطرب الشيخ، وقال: ويحك: لمن هذا؟ فو الله ما سمعت أجود منه لقديم ولا لمحدث!. فقال: لا أخبرك أو تكتبه، فكتبه، وكتب الأوّل، فقال للذي يقول:

ركْبٌ تساقوا على الأكوار بينهمُ كأسَ الكرى فانْتَشَى المسقيّ والساقي

كأنَّ أَرْؤُسَهم والنّومُ واضعُها على المناكب لم تخلقْ بأعناقِ

ساروا فلم يقطعوا عهداً لراحلةٍ حتّى أناخوا إليكُمْ قبل إشراقِ

من كلّ حائلة الطَرْفَيْنِ نَاجِيةٍ مشتاقَة حملت أوصال مشتاق

فقال: لمن هذا؟ وكتبه. فقال: للذي تذمّه وتعيب شعره أبي عليّ الحكمي! قال: اكتم علي. فو الله لا أعود لذلك أبداً"(23)

ويشير المؤلف في عدة مواضع من النورين إلى المعاني المولدة والمبتكرة عند المحدثين،مثل أبيات أبي نواس في إيوان كسرى ويرى ذلك مما اخترعه أبو نواس، كما نجده يعترف في مقدمة النورين بإكثاره الإتيان مما أبدعه الأعاجم في مجال الفصاحة العربية، حيث يقول: "إذ النفس أقرب إلى ماقَرُب منها مما بَعُد عنها،وهي أحق وأحجى أن تكون لإدراكه أرجى،لاسيما إذا رأى العربي الصريح،نُطْقَ العجم باللسان الفصيح ... فكثير مما أوردت عليك من روائع حكمهم وبديع كلمهم.أعاجم درت لهم الفصاحة بغير عصاب،وسبقت إليهم الرجاحة بغير اغتصاب، إذ علموا ما آية معانيها وكيفية مبانيها."(24) ومن قوله يتضح لنا أنه فعل ذلك متقصدا حتى يعكس لنا سعة الوعاء الثقافي العربي وقابليته لاحتضان الآخر الذي سيجد نفسه متأثرا بشكل كبير بالثقافة العربية،حتى وإن كانت جذوره العرقية والتاريخية تختلف عنها.وكأن الحصري يحلينا إلى اعتزازه بالثقافة العربية التي استطاعت أن تمتد أشعتها

لتلامس حضارات أخرى تختلف عنها من حيث السياق التاريخي والاجتماعي،وكأنه أيضا بهذا الشكل يؤسس لمبدأ التجاور بين الثقافات،والحوار بين الحضارات،ويحاول أن يستخلص من ذلك خاصية متميزة بالثقافة العربية تكون إضافة جديدة في مجال تحقيق الذات والتميز العربي من الناحية الحضارية

وعموما فإن نظرة الحصري إلى هذه القضية هي نظرة مهمة خرجت عن مضيق التعصب الذي عرفته مختلف النظرات النقدية القديمة،وهو موقف ايجابي يمكن اعتباره قيمة مضافة إلى الممارسة النقدية المغربية التي اتسمت بالاعتدال في مختلف المسائل.

04- اللفظ والمعنى :

بما أننا لا نكاد نجد ملامحا نقدية واضحة في النورين على اعتبار أنه كتاب أدبي إخباري،فإننا لم نستطع أن نقف للحصري على رؤية نقدية بينة حول قضية اللفظ والمعنى،التي كدنا نقول من خلالها أن الحصري من أنصار اللفظ على حساب المعنى.ويظهر ذلك في إتباعه الاتجاه البديعي،لكننا نتذكر دائما أن الرجل معتدل في تجربته النقدية التي عرفتنا بوسطيته إزاء مختلف مسائل النقد.وذلك ما دفعنا لمشاركة السيدة أبوصالح رأيها القائل بتفضيل الحصري للتسوية بين اللفظ والمعنى(25)، لأن تلاحم المبنى مع المعنى ينتج لنا جودة في الإبداع،ويخلق لنا جمالا فنيا على مستوى النصوص،ونحن إذ نقول ذلك نزكي هذا الطرح بقول الحصري نفسه وهو يمدح الأدباء المحدثين:

"فكثير مما أوردت عليك روائع حكمهم وبدائع كلمهم أعاجم درت لهم الفصاحة بغير عصاب وسبقت إليهم الرجاحة بغير اغتصاب إذ علموا ما آية معانيها وكيفية مبانيها."(26) فهو بصدد إبراز مقياس مهم في اختيار كلام المحدثين،وهو التوفيق بين روعة المعنى وبديع القول.خاصة وأن هؤلاء المحدثين قد أدركوا حقيقة العلاقة بين المبنى (اللفظ) والمعنى فأجادوا التأليف بالجمع بينهما في صورة مبهرة،دفعت بالحصري إلى الاحتفاء بهم من خلال الإشادة بهم وإيراد كلامهم في متن النورين

04- المفاضلة بين الشعر والنثر :

بعد الاطلاع على المدونة للمدونة تبين لنا أن حجم المادة الشعرية أكبر من نظيرتها النثرية ،حيث احتضن الكتاب 1450 بيتا،واستحوذت بذلك على نسبة سبعة 57 وخمسين بالمائة من حجم المدونة.بينما بلغت نسبة المادة النثرية فيها ثلاثة 43وأربعين بالمائة، بمعدل 140 قطعة نثرية.وهذا ما يجعلنا نتوقع أن الحصري من الأدباء الذين يميلون إلى تفضيل الشعر على النثر،وقد استطعنا التوصل إلى هذا الاستنتاج بوحي من اجتهادنا الشخصي في تأويل بعض العبارات التي صرح بها الحصري في مقدمة وخاتمة كتاب النورين.علاوة على غزارة المادة الشعرية الموجودة في النورين،إذ غالبا ما يكون الشعر مفتاحا للفصول و الألفاظ التي كان يعقدها الحصري لأهل العصر،ومن هذا المنطلق سنقدم المعطيات التي شكلت هذا الاستنتاج :

نحن على يقين من مسالة تأثر مؤلف الكتاب- في الفكر والمنهج- بالمدرسة المشرقية ،بدليل أن نسبة المادة المغربية الحاضرة في النورين لم تتجاوز 2 بالمائة من مجموع الكتاب.وقد علمنا سابقا أن المصادر التي أفاد منها الحصري في تأليف الزهر هي مصادر مشرقية بإمتياز وهذا ما يزكيه تصريح الحصري نفسه.كما لا يخفى علينا احتفاء المشرق العربي وتفضيله للشعر وعلى الخصوص مشارقة القرون الهجرية الأولى(27)،بغض النظر عن مسألة الأسبقية بينهما- أي بين الشعر النثر-.وفي هذا الصدد نجد الجاحظ يفضل الشعر بنوعيه القصيد والرجز على النثر الفني المتمثل في السجع والمزدوج. إذ يقول:"فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز(28). ويفضل الحاتمي الشعر على النثر بقوله:" وجدت البلاغة منقسمة قسمين منظوما ومنثورا وأولى هاذين القسمين بالمزية والقدم للمتقدم المنظوم(29) "،ومن أنصار فريق الشعر نجد أبو هلال العسكري الذي فضل الشعر على النثر بأمور ترجع إلى الوزن وبقائه على أفواه الرواة،واستفاضته في الناس وبعد سيره في الآفاق،وحسن وقعه على الأسماع والقلوب،وإلى تأثيره في الأعراض والأنساب،وإلى أنه لا يقوم مقامه شيئ في المجالس الحافلة،وأن مجالس الظرفاء والأدباء لا تطيب ولا تؤنس إلا به،وأنه أصلح للألحان التي هي أهنى للذات،وأن ألفاظ اللغة وشواهدها لا تؤخذ إلا منه،وأنه مصدر أخبار العرب وآدابها وعلومها وأنسابها،فهو ديوان العرب.(30)

وفي الموضوع أراء كثيرة – أي آراء الفريقين من أنصار الشعر أو أنصار النثر- وليس غرضنا استعراض هذه الآراء التي لا تشكل جوهر موضوعنا،وأن ما أوردناه في هذا السياق يدخل في باب الإيضاح والتمثيل فحسب

وإذا كنا قد ابتدأنا برأي الجاحظ حول موضوع المفاضلة بين الشعر والنثر،فذلك أننا لاحظنا احتفاءً وتفاعلا واضحا من قبل الحصري – في النورين- مع إنتاج الجاحظ الذي يعتبر مدرسة أدبية في حد ذاته،حتى أنه استهل كتابه(النورين) برأيين للجاحظ ،كما جعل أحاديثه تترد في تضاعيفه وكأنه ضمنيا- أي الحصري- يحيل على ترحيبه بفكر هذا الرجل الذي يفضل النظم على النثر.وليس ذلك غريبا على الحصري الذي يقول في مقدمة النورين:"وضممت الأشعار إلى الأخبار ووشحتها بالمستندر والمختار من كلام ملوك النظم والنثر."(31)

ويبدو أن الحصري قد تعمد تقديم كلمتي: الأشعار والنظم على كلمتي: الأخبار والنثر،لأن جُلَّ ما حفظته العرب في جميل القول هو من جنس الشعر.ولأن العرب رأت الشعر أجدى من النثر في استيعاب كيانها،وهذا ما يزكيه تلميذ الحصري الحسن ابن رشيق القيرواني إذ يقول:"وكان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة ... لتهز أنفاسها إلى الكرم وتدل أبنائها على حسن الشيم،فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام،فلما تم لهم وزنه سموه شعرا لأنهم شعروا به أي فطنوا ... وقيل:"ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون،فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره."(32)

ويقول ابن رشيق في موضع آخر: " وكذلك اللفظ إذا كان منثورا تبدد في الأسماع وتدحرج عن الطباع."(33)

وأغلب الظن أن ابن رشيق متأثر بنهج أستاذه الحصري،وذلك ما يجعله يرغب في الشعر أكثر من النثر.ومما يزيدنا ثقة في هذا الاستنتاج هو توافق رأي الأستاذ الثاني لابن رشيق- عبد الكريم النهشلي وهو من تلامذة الحصري أيضا- مع رأي ابن رشيق؛لأن النهشلي يرى الشعر أبلغ البيانين وأطول اللسانين،وأدب العرب المأثور وديوان علمها المشهور(34).ويبدو أن التلميذين كانا على رأي أستاذهما.

كما أن عبارة "ضممت الأشعار إلى الأخبار" توحي بقيمة الطرف المضموم،إذ لو لم يكن للشعر المضموم إلى الأخبار المنثورة مزية تستحق الذكر لما أشار إليها الحصري.وحجتنا في ذلك قول ابن رشيق:"وكلام العرب نوعان منظوم ومنثور ولكل منهما ثلاث طبقات،جيدة ومتوسطة ورديئة،فإذا إتفق الطبقتان في القدر وتساوتا في القيمة ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى ،كان الحكم للشعر ظاهرا في التسمية؛لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة."(35)

ومن ثمة نقول أن تلك الأشعار تسهم في زيادة حسن وطرافة الأخبار.

إنطلاقا من قول ابن رشيق الذي يرى أن العرب استثقلت حفظ الكلام المنثور،وحفظت بالمقابل أغلب ما جاء منظوما، فقد استقر لدينا أن الحصري حاول أن يفيد أكثر من المادة الشعرية،حتى يلقى كتابه قبولا واستحسانا لدى الْمُهدى له.حيث يقول في خاتمة كتاب النورين " وفي هذا الكتاب أكثر المعونة بأيسر المؤونة،على تنبيه نائم الخواطر وتحريك ساكن السرائر."(37) وهذا ما وجدناه حاصلا في الكتاب حيث أن أكثر مادته من الشعر،لأنه متيسر على الحفظ. أو كما يضيف له عبد الكريم النهشلي أسبابا نفعية تتعلق بوظيفته – الشعر- إذ ترتاح له القلوب وتجذل النفوس وتصغي إليه الأسماع وتشحذ به الأذهان وتحفظ به الآثار وتقيد به الأخبار.(38)

ومن العبارات التي جعلتنا نعتقد أن الحصري من أنصار الإبداع الشعري،هو قوله في مقدمة النورين عندما صرح بتشابه منهج هذا الأخير بكتاب الزهر:"لأنه يحذو حذوه وينحو نحوه في ملاحة النثر ورجاحة الشعر."(39)

وهذه العبارة توحي بتبرير الحصري لتفضيله الشعر وإفادته منه في كلا المصنفين،إذ أن الشعر من هذا الباب وعاء للعقل والفكر والحكمة،بينما النثر الذي ألحق به صفة الملاحة أقرب إلى القلب والعاطفة. يجنح بقارئه إلى فضاء الإمتاع والمؤانسة. أولم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم:" إن من البيان لسحرا وان من الشعر لحكمة."(40) فعادة ما نفتتن بملاحة الحسان وروعتهن مثلما تسحرنا الأسجاع والأجناس والمطابقات النثرية،بينما نرى في أبيات الشعر الراجحة صوت العقل والحكمة.وذلك ماجعل اليونانيين يعتمدونه كخزان لمنتوجهم العلمي وجعل العرب يعتبرونه ديوانا لحياتهم، يقول ابن رشيق" ومن فضائله أن اليونانيين إنما كانت أشعارهم تقييد العلوم والأشياء النفيسة والطبيعية التي يخشى ذهابها،فكيف ظنك بالعرب الذي هو فخرها العظيم وقسطاسها المستقيم."(40)

لكننا سنحاول الخروج من هذا الموضوع برأي توافقي يرضي الطرفين من أنصار الشعر أو النثر،ونستعين في ذلك برأي السرقسطي(محمد بن يوسف التميمي ت 428هـ) الذي كان أكثر وعيا واعتدالا في الحكم على القضية.ويعود ذلك إلى إدراكه عمق المسألة.بعد تنسيقه لمحاورة طويلة بين أنصار الفنين،حدد فيها الأسس التي ينتصر فيها كل فريق لما وافق ميله وفنه،ثم قارب بين وجهتي النظر بدفع ما أثير حول كل من الشعر والنثر من مثالب. ثم أنهى المحاورة بالدعوة إلى ضرورة تجنب المفاضلة بين الشعر والنثر على سبيل العموم،مادام أن الأحوال المتباينة من قبح وجمال وإبداع وإخفاق تجري على كليهما.على أن لكل في نظره وظيفة وغاية،فلا سبيل إلا للإقرار بالفضل للشعر في مجاله،وللنثر في مجاله أيضا؛لأنهما رافدان لنبع واحد.(42)

ونشير في هذا السياق إلى ذلك التواصل الثقافي بين جناحي العالم العربي مشرقة ومغربه،حيث انتقلت شرارة هذه المعركة حول القضية النقدية القديمة المتجددة -قضية المفاضلة بين الشعر والنثر- من المشرق إلى المغرب ليتلقفها نقاد القيروان ويدلوا فيها بدلوهم.(43)

وختاما يمكن القول إن سيادة جنس أدبي على غيره من الأجناس الأخرى أمر بديهي طبيعي،لا يتطلب كل هذا الجهد المهدور من النقاد،فالظروف الحضارية والحاجات الفكرية والفنية للمجتمعات هي التي تغلب جنسا أدبيا على غيره من الأجناس،حدث هذا قديما حينما كانت السيادة للشعر،ثم تحولت للنثر.وحدث هذا في عصرنا حينما ساد جنس نثري واحد وهو الرواية على غيره من الأجناس النثرية الأخرى،على اعتبار أن للرواية علاقة بوسائل الإعلام الحديثة.(44)

خاتمة:

هذا ما أسعفنا به اجتهادنا في بحث قضايا النقد الأدبي في كتاب النورين،حيث حاولنا أن نستنبط مختلف الأحكام النقدية من خلال قراءة أفقية متعمقة في متن الكتاب،باعتبار أن الحصري لا يصرح غالبا بمواقفه،علاوة على أن جل آرائه النقدية عبارة عن تعليقات مقتضبة تدخل في باب النقد المجمل.مما يجعل آرائه ضمنية غير مباشرة في الغالب،لا يصل إليها الباحث إلا من خلال القراءة المتأملة.ونسجل ميزة نقدية مهمة لدى الحصري،وهي الإبتعاد عن التشدد في الحكم النقدي وتبني الوسطية والإعتدال،وهذا الخاصية إنما تعكس تأثره بالثقافة الدينية التي تجنح غالبا إلى تحقيق الوسطية في جل الأمور.وهذه الميزة لا تختص بالحصري دون غيره من نقاد عصره،بل نجدها حاضرة لدى جل تلامذته كابن رشيق والنهشلي،مما يبرز أثر هذا الأستاذ في تلامذته.

الهوامش:

01- الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي،بشير خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1981م.ص: 87

02- أنموذج الزمان في شعراء القيروان،ابن رشيق، جمع وتحقيق محمد العروسي المطوي،بشير البكوش،الدار التونسية للنشر،تونس،1986م.ص:45

03- راجع: الحصري وكتابه زهر الآداب، د.محمد بن سعد الشويعر،الدار العربية للكتاب ليبيا- تونس،1981م.، ص :65

04- يُنْظر: الحصري وكتابه زهر الآداب،الشويعر،ص: 66،67

05-06 نور الطرف ونور الظرف،(النورين)،الحصري القيرواني،تحقيق ودراسة لينة عبد القدوس،مؤسسة الرسالة،بيروت لبنان ،ط 1،1996م ،ص 101،ص: 39

07- النورين، الحصري القيرواني، ص: 39

08- ينظر النقد الأدبي،د.عبده عبد العزيز قلقيلة،الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط2،1988م. ،ص: 129

09- النورين،الحصري القيرواني،ص: 100

10- المرجع نفسه،ص: 66،67

11- المرجع نفسه،،ص: 67

12- المرجع نفسه، ص: 67،68

13- المرجع نفسه، ص: 69

14- المرجع نفسه، ص : 81

15- المرجع نفسه،ص:82

16- المرجع نفسه،ص: 83

17- المرجع نفسه،ص: 84

18- المرجع نفسه،ص: 85

19- الحركة النقدية على أيام ابن رشيق،بشير خلدون، ص:205

20- النورين،الحصري القيرواني،ص:96

21- النقد الأدبي عند العرب،إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت – لبنان،ط4، 1983،ص: 122

22- محاورات مع النثر العربي،محمد ناصف، سلسلة عالم المعرفة،الكويت العدد 218 ،فبراير 1997،ص:19

23- النقد المغربي في المغرب العربيّ - نشأته وتطوّره حتّى القرن السّادس الهجريّ، محمد مرتاض، منشورات اتحاد الكتاب العرب،2000م.ص: 69

24- النورين،الحصري القيرواني،ص: 393،394

25- يُنْظَر: المرجع نفسه،ص: 79

26- المرجع نفسه،ص: 394

27- هذا لا ينفي أن هناك أنصارا للنثر أيضا،ولكن استعراض آراء هؤلاء وأولئك سيدخل بنا في باب الإسهاب والسرد التاريخي،فآثرنا ذكر الآراء الموجودة أعلاه للتأسيس وتزكية الرأي الذي قلنا به.

28- البيان والتبيين،الجاحظ،تح: عبد السلام هارون،دار الجيل بيروت ،دت ،214/1

29- من حلية المحاضرة،الحاتمي،تح: مظهر الحجي،وزارة الثقافة السورية ،دمشق 2000، 20/1

30- يُنظر: الصناعتين ،أبو هلال العسكري ،تح: د.مفيد قمحية،دار الكتب العلمية بيروت،ط1،1981، ص: 155،156

31- النورين،الحصري القيرواني،ص: 102

32- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،ابن رشيق القيرواني،تح محمد محي الدين عبد الحميد،دار الجيل بيروت ط1 ،1985، 20/1

33- المرجع نفسه،ص: 20

34- يُنْظَر: الممتع في صناعة الشعر،عبد الكريم النهشلي،تح: عباس عبد الساتر،دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1983،ص:11

35- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،ابن رشيق القيرواني،ص: 20

36- النورين،الحصري القيرواني،ص: 390

37- ينظر الممتع في صناعة الشعر،عبد الكريم النهشلي، ص: 14

38- النورين،الحصري القيرواني،ص: 103

39- مجمع الأمثال،أحمد بن محمد النيسابوري الميداني،تح محمد محيي الدين عبد الحميد،مطبعة السعادة،ط2، القاهرة مصر 1959، 7/1

40- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،ابن رشيق القيرواني،ص: 26

41- يُنْظَر: تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس هجري،د/مصطفى عليان عبد الرحيم،مؤسسة الرسالة بيروت ط 1 ، 1984، ص: 540،541

42- يُنْظَر: قراءات في النقد والأدب،د.مصطفى البشير القط،مكتبة الآداب القاهرة، ط1 ، 2007، ص:29

43- المرجع نفسه،ص: 31